الدوحة امتحان لأميركا

بقلم غسان سلامة

لا يبدو بنيامين نتنياهو، على عكس سلفه العمّالي شمعون بيريس، شديد الاهتمام بمؤتمر الدوحة الاقتصادي او بتطبيع وضع اسرائيل في قلب الاقتصادات العربية. و تعصب نتنياهو القومي – الديني يدفعه الى استراتيجيا ركوب موجة "الفاشية اليهودية" المتنامية داخل المجتمع الاسرائيلي، وهي تقوم على تيار فكري – ايديولوجي لا يسعى للانخراط في نسيج المنطقة، بل يميل بصورة عفوية الى اعادة اقامة جدران العداء والعنف مع محيطه غير اليهودي، معيداً انتاج نفسية الڤيتو المتشنج. وان سئل قادة هذا التيّار عن احتقارهم المعلن لتلك الفوائد الجمة التي قد تفوز بها اسرائيل عبر اختراقها للاسواق العربية، لاجابوا، كما فعل نتنياهو نفسه مراراً خلال حملته الانتخابية، بان لا حاجة في اسرائيل لاسواق المنطقة في حين ان اسواق دول العالم اجمع مفتوحة امام منتجاتها المتطورة، المدنية منها والعسكرية. وقد يضيفون ان دول العالم في الشرق والغرب لا تطالب اسرائيل باي تنازل سياسي او ديبلوماسي لقاء المتاجرة معها، بينما يشترط العرب على اسرائيل تنازلات شتى لتطبيع علاقاتهم واياها.

من هنا ذاك التناقض المثير بين زعيم عمّالي (مثل بيريس) يعتبر نفسه طليعة رجال الاعمال الاسرائيليين في الساحات العربية، وعرّاباً للتكامل الاقتصادي، وللشرق الاوسطية، وزعيم يميني (مثل نتنياهو) لا نلمس في مواقفه اي استعداد لاحترام شروط الحد الادنى الضرورية لقبول اسرائيل في نسيج المنطقة الاقتصادي. فهو امّا محتقر للعرب ولاقتصادهم ولاسواقهم، وامّا رافض لاي ليونة سياسية تفتح امامه ابواب تلك الاسواق. لم يعد الفرز الداخلي الاسرائيلي، اذن، يقوم على تنافس يمين ويسار مستمدين من تطور الفكر الاوروبي، بل بات ذاك الفرز يقوم على يمين متطرف، نفسيته غيتوية، عداؤه للعرب متجدد، رفضه لاعادة الاراضي المحتلة شبهٌ مطلق، في مقابل يسار عمّالي يمثل رواسب الصهيونية

– التتمة في الصفحة ١٨ –

◄ الدوحة امتحان لأميركا

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

القديمة، العلمانية، غير الرافضة في المطلق لتفاهم ما مع العرب، والمزدادة انكماشاً على نفسها، مبتعدة تدريجاً عن مجتمع تجاوز صهيونية هرتزل وبن غوريون الى نوع من الفاشستية المتدينة والمتغطرسة. لذلك يفهم المرء بسهولة حرج المساكين من زعماء دولة قطر وسفرائها. فمشكلتهم كبيرة مع المصريين والسوريين والسعوديين والمغاربة الذين يعارضون عقد ذاك المؤتمر او في الاقل يترددون في قبول الدعوة اليه. ولكن مشكلتهم اكبر مع نتنياهو الذي لا يساعدهم في شيء على عقد المؤتمر بل لا ينفك يستفز الفلسطينيين والعرب فيفرق قطر في دوامة الحرج والخجل. مسكينة قطر فعلاً، اذ هي دفعت ودافعت للفوز باستضافة هذا المؤتمر واذ بها تسمع من الاميركان ان عليها الاستمرار في التحضير للمؤتمر ودعوة اسرائيل اليه طبعاً، ولكن المستفيد الاول المعلن من عقد المؤتمر، اي اسرائيل نفسها، لا تبدو مستعدة لاي شيء يساعد القطريين. اما اسرائيل فقد عادت بحماسة (تدل عليها استطلاعات الرأي المزدادة تأييداً لنتنياهو) الى منطق القوة المجردة، القوة العارية، وهو منطق يميل للاهتمام بالاقتصادات العربية اهتمام الفشل والسرقة كما نرى من مقاربته لخيرات المنطقة المائية. وان بدا منه اهتماماً اكثر احتراماً للمواثيق، فانه يريده مجانياً، اي قائماً على التبادل التجاري العادي، متحرراً من اي شروط سياسية. بكلام اوضح، ليس نتنياهو مستعداً، ولا من وما يمثل، لمبادلة التطبيع الاقتصادي مع العرب باي موقف سياسي مقبول في فلسطين او الجولان او جنوب لبنان. فهو يريد الارض والماء من محيطه العربي المباشر، والتجارة غير المشروطة مع محيطه العربي الابعد.

***

سيكون مؤتمر الدوحة، اذا عقد، الرابع في سلسلة بدأت عام ١٩٩٤ في الدار البيضاء. واقل مؤتمر معناه الاساسي، يسعى اليه البلد المضيف بقوة. لذا كان مؤتمر الدار البيضاء مهرجاناً لليهود المغاربة جاؤوا اليه من اوروبا وكندا والولايات المتحدة واسرائيل، ليوظفوا موقف العامل المغربي "المعتدل" من النزاع العربي – الاسرائيلي وليثمروا علاقته الوطيدة مع رابين وبيريس وقادة حزب "العمل" في خدمة مشاريعهم المالية. فمن توطن منهم في اسرائيل كان لا ينفك يعتبر الحسن الثاني مليكه، ورابين رئيس حكومته، وبقي يتردد على بلده الاصلي ما استطاع. ومن بقي منهم في المغرب كان يتسنح الفرصة للتعبير غير المحرج عن ولائه للمغرب وعن عاطفته نحو اسرائيل في الآن ذاته. ومن هاجر منهم نحو الخارج، وفي الاجمال اثرى واغتنى، اعتبر مؤتمر الدار البيضاء مناسبة ممتازة يحتل خلالها موقعاً محورياً يجمع فيه اصوله المغاربية، ومواقعه الاسرائيلية، وعلاقاته وملايينه الاوروبية او الاميركية. لذا كان مؤتمر الدار البيضاء مؤتمر هؤلاء، نوعاً من الاجتماع العائلي الموسّع، احتل فيه يهود المغرب المنتشرون في العالم نحو نصف مقاعد الحضور ونظموا على هامشه اعراسهم واعيادهم وزياراتهم للاولياء، بينما كان المغرب نفسه يسعى لمبادلة سماحته المعروفة ازاءهم بهدف توسيع رقعة الاستثمارات في المغرب وتوظيف "الاعتدال" من شؤون المشرق في خدمة الاموال نحو المغرب.

تقلّصت هذه الصورة الوردية جغرافياً في المؤتمر الثاني، المنعقد عام ١٩٩٥ في عمّان، وكانت اتفاقات جديدة قد وقعت مع فلسطينيين (وخاصة اتفاق باريس الاقتصادي) ومع الاردن في وادي عربة. فبرز خلال مؤتمر عمّان وهم جديد، وهم "المثلّث الذهبي"، وهو عبارة عن بينيلوكس محلّي، سعى الاردن خلاله ان يدخل شرق النهر طرفاً اساسياً مستفيداً من التسوية على الساحة الفلسطينية. وركّز مؤتمر عمّان على الاردن كطرف اصيل في الثنائي الاسرائيلي– الفلسطيني، وكانت عمّان تُريد ان تبرز كنقطة التقاء محورية للرساميل الاسرائيلية والمغربية من جهة وللرساميل اثرياء الفلسطينيين الخليجية من جهة اخرى.

تغيّر المعنى مجدداً، وبصورة جذرية، في المؤتمر الثالث المنعقد في القاهرة عام ١٩٩٦. فبين عمّان والقاهرة كانت امور جليلة قد حصلت، منها الانتخابات الفلسطينية في مطلع ١٩٩٦ (وقد اضمرت امكان كيان فلسطيني مستقل) والانتخابات الاسرائيلية في ايار (وقد ادت على العكس الى توقف عملية التسوية) وقمة القاهرة العربية (التي اعادت النظر ولو جزئياً في مبدأ التطبيع العربي مع اسرائيل). بدا المصريون آنذاك وكأنهم يعيشون الاحراج الشديد الذي تعيشه قطر اليوم: فالمنطق العام كان يقضي بالغاء المؤتمر او بتأجيله ريثما تتحدد معالم الصورة الليكودية في اسرائيل، بينما كانت مطامح رجال الاعمال المصريين والضغوط الخارجية (اساساً الاميركية) تقضي بعقده رغم كل شيء في عاصمة المعز. ثم حزمت مصر امرها وسارت في طريق عقد المؤتمر ولكن الديبلوماسية المصرية استرجعت قواها العريقة وحسن تدبيرها المعترف به عالمياً، فجعلت من المؤتمر مناسبة لابراز مصر كساحة مضيافة للاستثمار الخارجي، وكطرف في اتفاقات ومشاريع اقليمية لا تمر بالضرورة في اسرائيل وتمكنت القاهرة من دعوة اسرائيل للاشتراك، ولكن مع تهميش منهجي لموقعها في المؤتمر ومحاولة جادة لاضعاف دورها في المنطقة، وخرجت من المؤتمر بنصف نجاح.